

رحيله

الادبية المعروفة التي اغنت الثقافة اللبنانية بابداعاتها وسيرتها الاستثنائية، رحلت في بيروت عن 87 عاماً، بعد مشوار شخصي وابداعي حافل بالتحديات. تركت اميلي نصرالله 32 عملاً بين رواية وقصة وادب طفل وشعر، ومسيرة تشكل نموذجاً يحتذى في التصميم والارادة وحب الغير



اميلي نصرالله أم الرواية اللبنانية.

أم الرواية اللبنانية انطفأت بلباقة كما عاشت وأبدعت إميلي نصرالله.. حارسة اللغة

"كل انسان يخشى النهاية، وانا اصلي دوما ان تكون نهايتي سريعة، وان لا اتعذب". قالتها اميلي نصرالله (1931 - 2018) في مقابلة مع "تلفزيون لبنان" عام 2014. لكن الامنية الاخيرة لـ "الفلاحة" الجنوبية - التسمية الاحب الى قلبها - لم تجد طريقها الى التحقق. اذ جاءت اغفاءتها الاخيرة الشهر الماضي بعد سنتين من المعاناة ومقاومة المرض العضال الذي منعها من تسلّم وسام جمهوري من رتبة كومندور، تقديراً لـ "عطاها وابداعها الانسانيين ولما خطه قلمها من كتب وروايات شكلت هداية وثقافة لابناء الوطن وللعالم بأسره. كانت رائدة

بامتياز، ورفعت اسم لبنان عالياً...". بدلا من اقامة الاحتفال في القصر الجمهوري، انتدب رئيس الجمهورية ميشال عون وزير العدل سليم جريصاتي ليسلمها الوسام في منزلها في الحمراء قبل اشهر.

انتصر المرض الخبيث على الكاتبة اللبنانية التي

طالما ربحت كل جولاتها في الحياة مذ ان كانت طفلة في الرابعة من عمرها. تنصت على شبك المدرسة القريبة من بيتها في الكفير، مرورا بتحديها منظومة القيم الاجتماعية والريفية المحافظة، وملاحقة حلمها حتى بيروت في زمن

الاجير. الشهر الماضي ايضا، شهد صدور اخر كتبها عن "دار هاشيت انطوان" بعنوان "الزمن الجميل" ليشكل رحلة في لبنان الخمسينات من خلال وجوه واسماء صنعت تلك المرحلة.

خاضت معاركها الشخصية بكل شجاعة في الحياة. الى جانب اعمالها الادبية التي تربو على حوالي 32 عملاً بين رواية وقصة وادب طفل وشعر ودخولها ذاكرة اجيال متلاحقة عبر المناهج الدراسية، تشكل سيرتها في ذاتها درساً لكل انسان. الكاتبة المولودة في كوكبا، قرية ايبيها داوود ابوراشد. ترعرعت في الكفير، بلدة امها لطفة ابونصر. كان ذلك في زمن الاربعينات، يوم كان يقال للبننت "بيكفي

تفكي الحرف... بكفيك الابتدائي". لكنها كانت تحلم اكثر من ذلك بكثير. منذ سن الرابعة من عمرها، ستتعلم قطع الطريق الفاصل بين بيتها والمدرسة الخاصة بالفتيات في القرية، لتسترق السمع الى قصائد واشعار وحروف ربما لم تفقه معظمها. ثم تطرق عائدة الى المنزل. في المساء، سيأتي والدها فخورا، يحملها ويضعها على طاولة الدار، ويطلب منها ان تسمع ما تعلمته اليوم. كان الوالد اميا، لكنه هو الذي شجعها على درب المعرفة والادب والعلم. اما منظرها كالسارق تحت شبايك المدرسة، فقد جعل امها تشفق عليها مرة. لذا، اخذتها بيدها ودخلت الصف على المعلمة قائلة لها: "تقبلها زرابية للبننت؟" (اي من دون تسجيل بما ان السن القانونية لدخول المدرسة ست سنوات). هكذا صار، حتى ان اميلي ستعيد الصف الثالث ابتدائي ثلاث مرات، بما ان المدرسة لم تكن تضم اعلى من هذا المستوى. لكن الفضل الاكبر في دفعها الى التحليق بجناحين بعيدا من واقعه وقيوده، وفي جعلها تعشق اللغة العربية وتتعلم اصولها، هو خالها ايوب خريج معهد الناصرة في فلسطين والعضو في "الرابطة القلمية" في اميركا. جاء الخال من نيويورك ليقيم في بيت العائلة، ويفتح عيني اميلي الصغيرة على العالم الواسع، حيث البنات الاميركيات يعشن حريتهن على الملأ ويحققن احلامهن من دون اي مساءلة.

نشأت اميلي على يديه في علمها وفكرها. كان هو يحدثها عن الحياة الواسعة في بلاد العم سام، هي المحرومة من فرصة اكمال تعليمها المدرسي، وهي التي تقضي يومها في الحقل، تشتغل بالارض، وقطاف الزيتون والحصدة، و"الحليشة التي تعد اصعب من الحصاد. اذ كنا نحلش القمح بيدنا لا بالمنجل"، وسط ظروف مناخية قاسية. اعطاها خالها ما تحتاج اليه. زرع فيها بذرة الثورة و"لوثة" التمرد والعصيان على بيئة تتلصص صوت البننت وتجهض احلامها. كلا، لن تكون ضحية اخرى. وكما ستدخل التاريخ باعتبارها من الجيل المؤسس للرواية اللبنانية، ستدخله ايضا بريادتها في مضامير اخرى: ستصمم على الذهاب الى بيروت لاكمال دراستها المتوسطة لتصبح من اولي الفتيات المتعلمات في لبنان. هذا ما حصل عام ◀

نقطة على السطر

تأنيث اللغة

كتبت اميلي نصرالله كما عاشت، مثابرة وورفاة وصدق. لذلك كانت لسان بيتها، وضمير شعبها، كما ينبغي لكل كاتب عظيم ان يكون. للاسباب نفسها، قرأها على مقاعد الدراسة، واثرت بخيالنا، وطبعت ذاقتنا الادبية، وساهمت بكلماتها، بحكاياتها، بشخصياتها، بمخاطباتها، بالحكمة الاخلاقية الكامنة في ابداعها... في تكوين ثقافتنا ووعينا الوطني.

لكن الممسك بالريشة هنا، ليغمسها في وجدان الجماعة، هو امرأة. لا بد من التذكير، ونحن نلقي عليها تحية الوداع الاخير، ان الطريق لم تكن معبدة، ولا حتى موجودة، امام هذه الكاتبة حين برزت، وفرضت حضورها، وحازت الجوائز، واثارت الاعجاب والتصفيق، في زمن اخر قد لا يتخيله القراء اليوم. زمن لم يكن فيه من السهل امام امرأة ان تشق طريقها في الحياة المهنية. فكيف بالاحرى في عالم الادب والحياة العامة؟

ما يميز مسيرة صاحبة "شجرة الدفلى" و"طيور ايلول"، هو العفوية والثقة والايمان والمثابرة، هي التي تمتد جذورها في تربة ثقافية وحضارية خصبة، غرقت منها قيمها، ومادة وحيها، وروح ابداعها. ما يميزها ايضا، الطموح لاكتشاف عوالم جديدة، كانت الكتابة مفتاحها، والخيال بوصلتها. حين تركت الكفير قرية امها التي استقرت فيها العائلة، لتدرس في الكلية الوطنية - الشوفيات، قرب العاصمة، ثم في كلية بيروت الجامعية، ثم الجامعة الاميركية حيث تخرجت عام 1958، قال الناس "عيب". كيف تذهب البننت وحيدة الى المدينة؟ كيف تعمل وحدها لتعيل نفسها وتدفع نفقات سكنها ودراساتها؟

اليوم، لان اميلي نصرالله وبعض بنات جيلها وضعن البنات الاولى لحدائة مجتمعنا، يمكن لعشرات الاف الطالبات، في شتى المجالات العلمية والادبية والتقنية، ان يحققن النجاح، ويلعبن دورا اساسيا في صياغة نهضتنا وبناء ازدهارنا. لذلك ايضا تحمل اميلي نصرالله لقب "الرائدة" بجدارة. الريادة في الادب طبعاً، حيث تركت لنا عشرات القصص والروايات والنصوص الخالدة التي مستنقلاها الاجيال، اما هي ايضا ريادية في التجربة الحياتية.

اميلي نصرالله اعطت شعبها ومعاصريها درساً في الحياة، ودرسا في الادب. حين نكتب انها "أم الرواية اللبنانية" كما نعتها رئيس الجمهورية في رثائه لها، فهذا اللقب ابعاد كثيرة. بنت من الوجدان الجماعي اللبناني ملحمة ادبية، من الهجرة الى قيم الريف في مواجهة تحديات التطور، الى مكانة المرأة في المجتمع وحقوقها. وضعت لبنات هذا المشروع الوطني الذي جعل سعيد عقل اول مكتشفها، وقد كرسها بجائزته الشهيرة مطع الستينات.

كل ما سبق يجد مرادفاته ومعادلاته في اللغة نفسها. استنبطت اميلي نصرالله لغة انيقة، تجمع بين العمق والبساطة، بين الواقعية في السرد والشاعرية في التقاط المشاعر الانسانية. يمكننا القول انها اشتغلت على تأنيث اللغة. اذا عدنا قراءة اعمالها الخالدة، بدءاً من رواية "طيور ايلول" (1962) وصولاً الى اخر مجموعاتها القصصية "رياح جنوبية" (2002)، سنلمس هذا السحر، هذه القدرة على اعادة صياغة تعقيدات الواقع وصراعاته، بلغة الحكواتي القديمة التي تمتلكها الجدات. كما عملت صغيرة في الارض مع الفلاحين، كذلك اشتغلت ادبنا في اللغة كي تفتتح فيها براعم نادرة تعيش فينا اليوم، نحن الاجيال المتعاقبة على قراءتها، من حيث لا ندري. هذه الرائدة الكبيرة، بين رواد ورائدات اخرين مضت بهم القافلة الى جنة الادب الخالدة، ستبقى لها مكانة على حدة عندنا بسبب هذا السحر الخاص في عوالمها وجملتها السردية. ايضا لانها جاءت الى اللغة بحساسية انثوية، وحولت تجربتها الى صرح من صروح القضية النسوية. ينبغي ان لا ننسى ان هذه السيدة المرهفة التي تربت على وعورة الطبيعة، وعملت صغيرة في الارض، عادت فاخذت مكانها في عالم كان حكرًا على الرجال، مع استثناءات قليلة جدا في تلك الحقبة. الحضور النسائي في صالونات الادب كان حكرًا على سيدات المجتمع الاستورقراطي، والعائلات الكبرى، ولم يكن لبنات الفلاحين مكان في هذا الفردوس.

لا شك في ان "لغة" مي زيادة في الجيل السابق، وعذاباتنا بين القاهرة وبيروت، كانت حاضرة في الازدهان واواخر الخمسينات حين انطلقت اميلي نصرالله في الادب والحياة.

سمير مراد



الفلاحة الجنوبية.

مؤلفات إميليا نصرالله

- * رواية
"طيور ايلول"، ١٩٦٢ - "شجرة الدفلى"،
١٩٦٨ - "الرهينة"، ١٩٧٤ - "تلك
الذكريات"، ١٩٨٠ - "الاقلاع عكس الزمن"،
١٩٨١ - "الجمر الغافي"، ١٩٩٥.
- * قصص
"جزيرة الوهم"، ١٩٧٣ - "الينبوع"، ١٩٧٨
- "المرأة في ٧١ قصة"، ١٩٨٣ - "الطاحونة
الضائعة"، ١٩٨٤ - "خبزنا اليومي"، ١٩٩٠
- "محطات الرحيل"، ١٩٩٦ - "الليالي
الغجرية"، ١٩٩٨ - "اسود وابيض"، ٢٠٠١ -
"رياح جنوبية"، ٢٠٠٥.
- * ادب للصغار
"الباهرة" (رواية)، ١٩٧٥ - "شادي
الصغير"
(كتاب قراءة للأطفال)، ١٩٧٧ - "يوميات
هرز" (رواية)، ١٩٧٧ - "روت لي الايام"
(مجموعة اقصيص)، ١٩٩٧ - "الغزاة"،
١٩٩٨ - "اندا الخوتا"، ٢٠٠٠ - "على بساط
س. م
- * رواية
"الثلج" (رواية)، ٢٠٠٠ - "اوراق منسية"
(مجموعة اقصيص)، ٢٠٠١.
- * سيرة ومذكرات
"في البال" (ذكريات صحافية)، ٢٠٠٠
- "نساء رائدات" (سيرة في ستة اجزاء)،
٢٠٠١ - "الزمن الجميل (وجوه من بيروت
الخمسينات والستينات)، ٢٠١٨.
- * ترجمات الى لغات اخرى
"الاقلاع عكس الزمن" بالانكليزية (١٩٨٧)
والالمانية (١٩٩١) والدايماركية (١٩٩٣) -
"طيور ايلول" بالالمانية (١٩٩٨) - "بيت
ليس لها" بالانكليزية (١٩٩٢) - "خطوط
الوهم الرائعة" بالانكليزية والعربية (١٩٩٥)
- تحويل رواية "الاقلاع عكس الزمن"
الى كتاب سمعي بالدايماركية (١٩٩٦) -
"الرهينة" بالالمانية (١٩٩٦) - "يوميات هرز"
بالالمانية والانكليزية والاطالية والهولندية
(١٩٩٨-٢٠٠١)، والتايلاندية (٢٠٠٥) - "تلك
الذكريات" بالفنلندية (٢٠٠٤).

ظلت تكتب للانسان. اعتبرت قلمها مساهمتها في خير البشرية. هذا ما صرحت به مرارا، وما اثبتته ممارستها. في اليوبيل الذهبي لـ"طيور ايلول" عام 2012، صدرت نسخة جديدة من الرواية مع قرص مدمج تتلو فيه املي الرواية كاملة على مدى خمس ساعات. حين سئلت عن هذه المهمة الشاقة التي قامت بها، اجابت بانها فعلت ذلك مدفوعة بهم واحد هو جعل الجيل الجديد يحب لغته الام في مواجهة الاغراءات التكنولوجية الكثيرة. ارادت ان يقرأ لغته ويشعر بفخر انتمائه الى هذه الهوية. بل ان نسخة خاصة من الرواية صممت للمكفوفين ايضا وفق ما قالت الكاتبة بنفسها. اذ ارادت ان تصل الى كل العاجزين عن القراءة، فـ"جديتي كانت امية، لكنها كانت حكواتية رائعة".

رغم كل المكابذات والحياة الشاقة في مجتمع ريفي قاس، ظلت القرية المكان الذي تعود اليه اميلي في يقظتها، واحلامها. تشعر بالفخر بقريتها وطموح ابنائها، تتخيل نفسها في بيتها القديم في الكفير. حتى انها اسرت ان ابنتها تنوي تحويل البيت الى متحف باسم "بيت طيور ايلول". اولادها الاربعة من زوجها فيليب الذي كانت دوما تردد فضله ودوره الكبير في تشجيعها، علمتهم الزراعة، هويتها المفضلة، واورثتهم حب اللغة، والارض والانتماء. هي التي لطالما رددت: "انا فلاحة حملت القلم لالكتب، بدلا من حمل المنجل في الحقل".

لعل اوفى وصف لشخصية اميلي نصر الله ما قالته عنها الاكاديمية زهيدة درويش: "نادر جدا ان تجد اديبة يشبهها ادبها الى هذه الدرجة. هي متواضعة، رقيقة، عميقة، مهذبة، صادقة، محبة، ودودة وشفافة واصيلة. هذه الصفات جعلت ادبها يقبل عليه الكبار والصغار والمراهقون. قدرتها على النفاذ الى النفس البشرية جعلت ادبها يحظى بكل هذه الشعبية ويترجم الى لغات عدة، وثقافتها الواسعة مكنتها من الاطلاع على شعوب وثقافات مختلفة، فاعطتها انفتاحا في رؤياها، الى جانب ما تتحلى به هي من انفتاح على الانسانية. انها لؤلؤة باخلاقها وادبها".

ابنة الكفير
ايام الصبا.

مفاجأة لها تمثلت في عودة اخوتها الخمسة الى بيروت. يومها، صور فيلم عن هذه المناسبة تحت عنوان "عودة طيور ايلول". شريط جسد امنية 80 في المئة من الشعب اللبناني الذي يعيش هنا، لكن عينيه شاخصتان الى هناك، الى ما وراء البحار على امل عودة الغياب النهائية. هكذا هو ادب اميلي. مخمس بهموم هذا الشعب، ينطلق من الخاص، ليعكس العام والواقع باوفى صورته واشدها وجعا.

يجسد مناخ ومزاج القرية في هذا الفصل من السنة، ثم يتوغل الى دواخل النفوس. هذه السمات الاسلوبية في لغة اميلي، ستستمر معها طوال اعمالها اللاحقة، ولو قاربت مواضيع وتيمات مختلفة ومتنوعة من بينها حرية المرأة في مجتمع محافظ وذكوري ("شجرة الدفلى" و"الرهينة")، وتيمات الهجرة والحرب والمرأة ("الاقلاع عكس الزمن"). في عيدها الثمانين، حضرت عائلتها في بيروت



صورة نادرة تجمع اقطابا في الكتابة. في ندوة في "دار الفن والادب" تلقي اميلي نصرالله كلمتها. من اليمين: يوسف حبشي الاشقر، غسان كنفاني، حليم بركات، جميل جبر، اميلي نصرالله، نور سلمان.

◀ 1953 مع شرط من الاهل بان لا تعيش بمفردها. اذا استدخل معهدا داخليا وستعلم فيه في مقابل هذه الإقامة. ستكتب وترجم، وتدرجا، ستكون من اولى الصحافيات النساء مع دخولها مهنة المتاعب في "صوت المرأة". ثم فتحت لها "دار الصياد" ابوابها عام 1955. صديقتها الاعلامية صونيا بيروتي، تتذكر انها حين دخلت الدار بعد سنوات، هالها منظر الصحافيين الرجال. لكنها احسبت بالامان حين لمحت امرأة يتيمة وسطهم. كانت تلك اميلي. في موازاة الكتابة في شؤون المرأة وقضاياها وانشغالاتها الاجتماعية من خلال زاوية "الدور والقصور" التي ادخلتها الى قصور بيروت وعرفتھا الى ساكناتها، كانت اميلي تستعد لضربتها الاولى التي ستلتصق لها حتى نهاية مشوارها، وتصبح توأما لاسمها مهما كتبت من اعمال بعد هذه التحفة. انها "طيور ايلول" (1962) التي تخطت طبعاتها الـ18 حتى اليوم وتوجتها بالكثير من الجوائز ابرزها "جائزة سعيد عقل" و"جائزة جبران خليل جبران" من رابطة التراث العربي في استراليا. رواية ستضع الخطوط العريضة لمشروع اميلي نصرالله الابداعي: ادب يستعيد القرية اللبنانية، والريف ومفرداته ومعجمه وذاكرته وناسه بلغتهم، يجاهر بالانتماء الى هذه الارض بتربتها وهويتها التي تشكل اللغة العربية عمودها الفقري. استوتحت باكورتها من اخوتها الاربعة واختها الذين هاجروا. كانت رواية عن الهجرة والاغتراب. طيور ايلول لم تكن سوى اخوتها. لكن بقدر ما كان الموضوع شخصيا، كان عاما. موضوع الاغتراب استهلمته من ابناء بلديتها ممن هاجروا، وباتت زيارتهم للوطن تقتصر على فصل الصيف قبل ان يغادروا مع حلول شهر ايلول بحثا عن مستقبل امن لاولادهم. تقول املي في الرواية: "عندما يحل ايلول، تاسع اشهر السنة، تمر فوق قريتها اسراب كثيرة من طيور كبيرة الحجم، قوية الجناحين، يعرفها السكان بطيور ايلول ويتلفت الناس نحو الفضاء الموشح ببواكير الغمام، يراقبون الطيور، وفي صدورهم غصات انفعال. ان هذه الطيور المهاجرة تسجل نقطة جديدة في دائرة الزمن، ويذكرون ان فصل البرد اصبح على الابواب". اسلوب بسيط وشفاف ومرهف يغلفه الوجد.